حتى لا يرى العدو ضعفا الى دخول الليل فأمر العسكر أن يبيت شاكي
السلاح قال ابن شداد فبتنا تلك الليلة وأنا والطبيب نمرضه وهو
ينام ساعة ويستيقظ أخرى من شدة ألمه الى الصباح فركب وركبت
العساكر واحدقت بالعدو فعادوا مخذولين وتبعهم صلاح الدين
بالجيش وباتوا الليلة الثانية كذلك على مرضه وحاله حتى أظفره
الله تعالى وقال أيضا ينصب المناجيق على صفد في أشد البرد
ليلا والمطر الكثير واذ وصله خبر وفاة ابن أخيه تقي الدين
فأحضر خاصته واوقفهم على وفاته وبكى بكاء شديدا حتى أبكانا
فقلت أنا استغفر الله من هذه الحالة وانظروا اين أنتم وفيم
أنتم وأعرضوا عما سواه فقال صلاح الدين رحمه الله تعالى نعم استغفر
الله العظيم وجعل يكررها ثم قال لا تخبروا أحدا وغسل عينيه بماء
الورد وكان شديد المحبة لأولاده الصغار صابرا على مفارقتهم
لاعلاء كلمة الله

الفصل السابع عشر في رضاه بمر العيش وتواضعه واكرامه للوافدين عليه
وتحمله اذى الناس ومروءته وفرط كرمه

وكان رحمه الله تعالى يرضى بمر العيش وخشونته مع القدرة التامة
على غير ذلك قال ابن شداد وكان من عادته انه يركب في وقت
الركوب ثم ينزل للطعام ثم ينام ويستيقظ ويصلي ثم نقرأ شيئا
من الحديث والفقه فنزل يوما على عادته وقدم الطعام فقدم
على قصده فقيل له ان وقت الصلاة قرب فعاد وقال نصلي وننام
فقدم اليه مملوك وعرض عليه حاجة فقال أخرها ساعة فاني
الآن متضجر فقدم المعروض الى وجهه ووضع يده على كم صاحب
الحاجة

الحاجة وقال رجل سنحى يوقع المولى له فقال صلاح الدين ليست
الدواة حاضرة فقال المملوك هذه الدواة في صدر الخركاة وليس
لهذا معنى الا أمره اياه باحضار الدواة لا غير فقال رحمه الله
صدق وقام بنفسه وجاء بالدواة ووقع له فقلت له لقد اقتديت
بالنبي صلى الله عليه وسلم في خلقه فقال رحمه الله ما ضرنا شيئا
قضينا حاجة الرجل وحصل لنا الثواب وكانت طراحته تداس
عند التزاحم عليه لعرض القضايا وهو لا يتأثر ولقد زحمت بغلتي
يوما وركضته حتى المته وهو يتبسم واردت التأخر عنه بسبب
ذلك فما تركني وكان يسمع من المظلمين أغلظ العبارات
ويلقى ذلك بالبشر وكان كثير المروءة ندى اليد كثير الحياء
مبسوط الوجه لمن يرد عليه لا يفارقه الضيف حتى يطعم
عنده ولا يخاطبه بشئ الا وينجزه له ويكرم الوافد عليه
ولو كان كافرا ولقد وفد البرنس صاحب انطاكية على خيمته
بغتة وهو عدوه وطلب منه العمق فأعطاه اياها وهي بلاد
كان أخذها منه ٥٨٤هـ ووفد عليه البرنس صاحب صيدا
فاحترمه وأكرمه وأكلا سوية وعرض عليه الاسلام
وذكر له طرفا من محاسنه وحثه عليه وكان يكرم الواردين
عليه من أهل العلم والفضل ويوصينا بأن لا نغفل عمن
يمر من أهل الفضل الا ونوصله له ليحسن اليه ولقد مر
بنا رجل جمع بين العلم والعمل وكان أبوه صاحب تبريز
فأعرض عن ملك أبيه لسلك الدين فرأى السلطان
واجتمع به لما بلغه من حسن سيرته وعلو شأنه وروى

Copyright © King Saud University